● **المبحث الثالث: طبيعة الخطاب لدى الأكثرية فى مجال المعاملات**

النص المحورى الذى يعالج هذه المشكلة هو قول الله تعالى: ﴿**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**﴾ [النساء: ١١٤]، ومعنى الآية: لا يتحقق الخير فى أغلب صور النجوى التى تحدث بين أغلبية الخلق، إلا فى تلك النجوى التى يأمر فيها أصحابها بإحدى ثلاث؛ بالصدقة وأعمال البر والمعروف، والإصلاح بين المتخصمين، ومن يفعل هذه الأفعال الثلاثة طلبا لرضى الله بعيدا عن الرياء فقد استحق أجراً عظيماً عند الله.

والنص من سورة النساء وهى مدنية موضوعاتها الأساسية تعالج الشئون التشريعية التى تنظم الحياة المدنية للناس، فقد «اشتملت على أغراض وأحكام كثيرة أكثرها تشريع معاملات الأقرباء وحقوقهم.. ثم أحكام المعاملات بين جماعة المسلمين فى الأموال والدماء وأحكام القتل عمدا وخطأ، وتأصيل الحكم الشرعى بين المسلمين فى الحقوق، والدفاع عن المعتدى عليه..»[١].

ومقصود النص هنا يصب فى هذا السياق العام، الذى يشمل تنظيم المعاملات الفردية والجماعية، ويعالج بصفة أساسية موضوع «الخطاب السرى» ويسميه القرآن فى آيات كثيرة «النجوى» وهو خطاب منهى عنه فى الغالب، لحديث صحيح رواه الإمام مالك فى الموطأ هو: «إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحد»[٢].

وقد وجه القدماء تفسيرهم للنص المحورى وجهة اجتماعية فردية فى الغالب، ووجهه معظم المعاصرين وجهة سياسية، والصواب العموم، لتناسيه مع السياق العام لأغراض السورة وهى تنظيم المعاملات الفردية والجماعية.

القرطبى يذكر أن المقصود من الآية «ما تفاوض به قوم بنى أبيرق من التدبير»[٣]، عندما سرق طعمة بن أبيرق وحكم عليه الرسول ﷺ بالقطع وهرب

---

(١) التحرير والتنوير ٤/٢١٣. (٢) الموطأ: ٢/٩٨٩ صحيح مسلم: ٤/١٧١٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٥/٣٨٢.

إلى مكة وارتد[١]، فإذا صح هذا فإن النجوى هنا ستأخذ حجمها كمصطلح سياسى أكثر منه سلوكى وهو الأقرب إلى منطق السياق الذى جاءت فيه الآية، إذ سبقت بما يشير إلى أن طائفة قد همت أن تضل الرسول ﷺ لتلحق به الضرر، لولا أن تداركه الله برحمته وفضله، قال تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ** ﴾ [النساء: ١١٣]، وألحقت بما يدل على أن هناك من يشاقق الرسول، ومنهم ابن أبيرق فيما يذكر المفسرون، فقال تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾

[النساء: ١١٥]

فالسياق سياق تشريع لبيان الخير والشر، إذ «لم تخل الحوادث التى أشارت إليها الآية السابقة، ولا الأحوال التى حذرت منها، من نتاج وتحاور سرًا وجهرًا لتدبير الخيانات وإخفائها وتبييتها، لذلك كان المقام حقيقا بتعقيب جميع ذلك، بذكر النجوى وما تشتمل عليه، لأن فى ذلك تعليمًا وتربية وتشريعًا، إذ النجوى من أشهر الأحوال العارضة للناس فى مجتمعاتهم، لا سيما فى وقت ظهور المسلمين بالمدينة، فقد كان فيها المنافقون واليهود وضعفاء المؤمنين، وكان التناجى فاشيًا لمقاصد مختلفة. فلذلك تكرر النهى عن النجوى فى القرآن»[٢].

وعلى هذا فإن «الخطاب السرى» الذى يصدر عن الأكثرية فى مجال المعاملات لا ينتظر منه الخير، ومعنى أنه لا خير فيه أنه شرٌ فى معظمه، بناء على المتعارف عليه فى نفى الشىء أن يراد به إثبات نقيضه لعدم الاعتداد بالواسطة فيما لا واسطة فيه[٣].

فالخطاب السرى يغلب عليه طابع الفساد سواء أكان إيديولوجيا أو سياسيا، فرديًا أو جماعيًا، وهذا هو علة النهى عن معظم صوره فى القرآن

---

(١) نفسه ٥/ ٣٨٥.
(٢) التحرير والتنوير: ٥/ ١٩٨.
(٣) نفسه ٥/ ١٩٩.

الكريم، ومنها النهى الصريح عن بعض صور التناجى المفضية إلى الفساد الكبير كما يبينه قول الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ** ﴾ [المجادلة: ٨].

قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم وينظرون للمؤمنون ويتغامزون عليهم فيقول المؤمنون لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة، وكان ذلك يحزنهم ويسوءهم، فكثرت شكواهم إلى النبى ﷺ فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت(١).

والحق أن «النجوى» أى الخطاب السرى لم ينه الله عنه المنافقين واليهود فحسب، بل نهى عنه المؤمنين أيضا، لما له من ضرر يؤدى إلى الفرقة والتحزب، ثم لما يترتب عليه من خصومات وتقاتل كان المسلمون طوال التاريخ الإسلامى يعانون منه، بدءا بالفتن التى أدت لمقتل عثمان بن عفان وعلى رضى الله عنهما إلى الفتن بين أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى، وما إلى ذلك مما سمى بعد ذلك جهلاً حينا وتعصبًا أخرى بالفرق الإسلامية والأحزاب الإسلامية، حتى انتهى الأمر بنا فى العصر الحديث إلى التقاتل بين الشعوب الإسلامية لغير سبب معقول.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ فنهى عن صور التناجى التى تتضمن خصالاً سيئة ثلاثا:

(أ) الإثم: وهو ما يتعلق بالخطاب السرى الموجب للكفر أو الإساءة للمجتمعات الإسلامية أو لأعراض المسلمين، فهو النهى عما يستهدف الجانب المعنوى من الشخصية الإسلامية فردية كانت أو جماعية.

(ب) العدوان: وهو ما يدبره الكائدون من مؤامرات ضد أفراد المسلمين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٢٩١.

وجماعاتهم ودولهم، فهو خطاب سرى يستهدف التخطيط لإلحاق الضرر المادى بعد ذلك.

(ج) معصية الرسول ﷺ، وعصيان من يخلفه فى قيادة الأمة الإسلامية عن حق، بمخالفة أمره أو التخاذل فى تنفيذ أوامره ونواهيه بما فى ذلك النهى عن النجوى، وهذا خطاب سرى يستهدف نشر أساليب التمرد والعصيان على القيادة النبوية والصالحين ممن يخلفه من قيادات هذه الأمة.

وإذا كانت الآية التى تعلقت بنهى اليهود والمنافقين، والآية التى تعلقت بنهى المؤمنين قد تضمنتا معًا نفس الموضوعات التى شكلت صور التناجى المنهى عنه، فمعناه أن «الخطاب السياسى السرى» صار أوضح فى المقصد، وأكثر أهمية لعظم ضرره، وتأثيره على الأفراد والأسر والدول.

ولما كانت ذلك خطيراً لهذه الدرجة فقد وجهت الآية المؤمنين لخطاب سرى مقبول، وهو المتضمن صورا شرعية، فقال: ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩] فالآية هنا تبين للمؤمنين – بعد أن نهتهم على الموضوعات السابقة – «ما يليق بهم من الموضوعات التى يتناجى بها المؤمنين (وتناجوا بالبر والتقوى) لتدبير وسائلها وتحقيق مدلولها، والبر الخير عامة، والتقوى: اليقظة والرقابة لله سبحانه وتعالى وهى لا توحى إلا بالخير»[1].

ومنه نستنتج أن «التناجى» المنهى عنه إنما هو الخطاب السرى الضار بالخلق جملة، لأنه من وحى الشيطان الذى لا يدل الإنسان إلا على أساليب الفساد وطرقه، والآية بعد ذلك تبين دور الشيطان فى هذه المشكلة فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، الشيطان هو مصدر الوحى بالخطاب السرى فى صوره الثلاثة السابقة، وهدفه إلحاق الحزن والأسى وإشاعة البلبلة فى الصفوف الإسلامية بواسطة المرتدين والمنافقين واليهود والكفار

(١) فى ظلال القرآن: ٢٨ / ٣٥١٠.

أجمعين، فهؤلاء أدواته الأساسية، فإذا لحق بهم ضعاف النفوس من المؤمنين، فقد اكتمل للشيطان مراده ليلحق بالمؤمنين الأضرار المادية والمعنوية، مثل تلك التى كانت تتعلق بالسرايا التى أصيب فيها المسلمون أو اجتماعات اليهود والمنافقين على الكيد بالمسلمين قديمًا[1]، واجتماعات الكفار والمنافقين على الكيد بالمسلمين وبث التفرقة بين شعوبهم وقياداتهم حديثًا.

وعليه فإن حصر مصدر النجوى فى الشيطان تعميم لضررها، مما يسوق إلى القول بأن الآية «قد تكون تعليلا لتأكيد النهى عن النجوى»[2]، والحصر المستفاد من «إنما» لحصر النجوى فى مصدر واحد هو الشيطان، أى أن الخطاب السرى أسامه الشيطان، لأن «الأغراض التى يتناجون فيها من أكبر ما يوسوس الشيطان لأهل الضلالة بأن يفعلوه ليحزن الذين آمنوا بما يتطرقهم من خواطر الشر بالنجوى، وهذه العلة ليست قيدا فى الحصر، فإن للشيطان عللا أخرى مثل إلقاء المتناجين فى الضلالة، والاستعانة بهم على إلقاء الفتنة، وغير ذلك من الأغراض الشيطانية»[3].

وإذا تبينت لنا أغراض الشياطين كلها - شياطين الإنس والجن - من الخطاب السرى فما هى الأغراض الأساسية من النهى عن (النجوى) وكل الخطابات السرية المفسدة، لاسيما ما يتعلق بالموضوعات الكبرى الثلاثة وهى، الإثم والعدوان ومعصية الرسول؟

مادامت طبيعة هذه الموضوعات تتسع لتشمل الأفراد والأمم، فإنه من الطبيعى أن يكون الغرض من النهى عن الخطاب السرى الضار هو التربية الشاملة للفرد المسلم، فيشمل التربية الخلقية لتعلقها بحياة الأفراد فى المجتمع، والتربية السياسية لتعلقها بصلاح أمر الدول والشعوب والأمم، فى حياتها السياسية

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٢٩٥.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٨ / ٣٤.
(٣) نفسه.

والاقتصادية وغيرهما، لأن «شأن المحادثات والمحاورات أن تكون جهرة، لأن الصراحة من أفضل الأخلاق، لدلالتها على ثقة المتكلم برأيه، وعلي شجاعته فى إظهار ما يريد إظهاره من تفكيره، فلا يصير إلى المناجاة إلا فى أحوال شاذة يناسبها إخفاء الحديث، فمن يناجى فى غير تلك الأحوال رمى بأن شأنه ذميم، وحديثه فيما يستحيى من إظهاره، وقد ظهر من نهى النبى عليه الصلاة والسلام أن يتناجى اثنان دون ثالث أن النجوى تبعث الريبة فى مقاصد المتناجين، فعلمنا من ذلك أنها لا تغلب إلا على أهل الريب والشبهات، بحيث لا تصير دأبا إلا لأولئك، فمن أجل ذلك نفى الله الخير عن أكثر النجوى»[1].

ومن الطبيعى والحال كما رأينا – فى معظم المواقف فى الفصول السابقة، وكما سنرى فى الفصول اللاحقة – أن يكون أغلبية البشر لا يتناجون إلا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، لأن هذا هو ما يناسب الأغلبية لكونها كافرة، أو كارهة للحق أو فاسقة، أو منافقة، ولذلك نفت الآية «الخير عن كثير من نجواهم أو متناجيهم فعلم من مفهوم الصفة أن قليلا من نجواهم فيه خير، إذ لا يخلو حديث الناس من تناج فيما فيه نفع.. فأخرج [القليل] من كثير من نجواهم بطريق الاستثناء فبقى ماعدا ذلك من نجواهم وهو الكثير، موصوفا بأن الخير فيه»[2]. فالنجوى إذن نوعان نجوى خير، تضم فيما تضم الخطاب السياسى والاجتماعى الذى من شأنه معالجة مشكلات اجتماعية كأمر الصدقات، أو الإصلاح بين الزوجين أو مشكلات سياسية كالإصلاح بين المتقاتلين من الشعوب والأمم وما إلى ذلك، وهذه النجوى فيها خير لذلك أباحها الفقهاء، فقال ابن العربى: «إذا ثبت أن نهى النبى ﷺ معلل بتحزين الواحد فإذا استأذن فأذن له جاز ولم يحرم»[3].

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/١٩٩. (٢) نفسه ٥/ ٢٠٠.
(٣) ابن العربى: أحكام القرآن ١/ ٥٠٠.

أما النوع الثانى فهو نجوى الشر، وتضم فيما تضم الخطاب الاقتصادى والسياسى والاجتماعى، وكل ما من شأنه الكيد للأمة أو المؤسسة الاقتصادية أو الدولة، وهذه النجوى فيها ضرر كبير، ولذلك حرمها العلماء، قال ابن العربى «إن علة النهى تحزين الواحد وهو موجود فى كل موضع، وكلما كثر العدد كان التحزين أكثر فيكون المنع آكد»[1]، وذكر ابن عاشور أن تناجى الجماعة دون جماعة فإنه أيضا مكروه أو محرم[2].

وقد بين سيد قطب كثيراً من أسرار النهى عن التناجى، فرفعه إلى المستوى الجماعى السياسى فضلاً عن جانب المستوى الأخلاقى الفردى، لذلك يحسن بنا عرضه هنا كاملاً، إذ قال: «لقد تكرر فى القرآن النهى عن النجوى، وهى أن تجتمع طائفة بعيداً عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة، لتبيت أمراً، وكان اتجاه التربية الإسلامية واتجاه التنظيم الإسلامى كذلك أن يأتى كل إنسان بمشكلته أو بموضوعه، فيعرضه على النبى ﷺ مسارة إن كان أمراً شخصياً لا يريد أن يشيع عنه شىء فى الناس، أو مساءلة علنية إن كان من الموضوعات ذات الصبغة العامة التى ليست من خصوصيات هذا الشخص.

والحكمة فى هذه الخطة هو ألا تتكون (جيوب) فى الجماعة المسلمة، وألا تنعزل مجموعات منها بتصوراتها ومشكلاتها أو بأفكارها واتجاهاتها، وألا تبيت مجموعة من الجماعة الإسلامية أمراً بليل، وتواجه به الجماعة أمراً مقرراً من قبل أو تخفيه عن الجماعة وتستخفى به عن أعينها، وإن كانت لا تختفى به عن الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول.

وهذا الموضع هو أحد المواضع التى ورد فيها هذا النهى عن التناجى والتبييت بمعزل عن الجماعة المسلمة وقيادتها.. كان المجتمع المسلم كله مجتمعاً مفتوحاً، تعرض مشكلاته – التى ليست بأسرار للقيادة فى المعارك وغيرها، والتى ليست بمسائل شخصية بحتة لا يحب أصحابها أن تلوكها الألسنة – عرضاً عاماً،

---

(١) نفسه.

(٢) التحرير والتنوير ج٢٨ / ص٢٩.

وكان هذا المجتمع المفتوح من ثم مجتمعًا نظيفًا طلق الهواء، لا يتجنبه ليبيت من وراء ظهره إلا الذين يتآمرون عليه أو على مبدأ من مبادئه – من المنافقين غالبًا – ولذلك اقترنت النجوى بالمنافقين فى معظم المواضع.

وهذه الحقيقة تنفعنا، فالمجتمع المسلم يجب أن يكون بريئا من هذه الظاهرة وأن يرجع أفراده إليه وإلى قيادتهم العامة بما يخطر لهم من الخواطر، أو بما يعرض لهم من خطط واتجاهات أو مشكلات، والنص القرآنى، هنا يستثنى نوعًا من النجوى هو فى الحقيقة ليس منها وإن كان له شكلها ﴿**إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ .. (١).

* * *

(١) قطب: فى ظلال القرآن: ٥ /٧٥٨.